ميكانيزم النكوص

بقلم

كمال الدين عبد الحميد نابل

مدرس الفلسفة بمدرسة الحلمية الثانوية

فصغيراً قد كنت أطلب لو كنت كبيراً ولى صفات الكبير
وكبيراً ، لو عدت طفلا صغيراً واستردت نفسى نعيم الصغير

من قصيدة لميخائيل نعيمه بعنوان
«حيل التمنى» فى ديوانه «همس الجفون»

قد يعاودنا الحنين إلى الطفولة إذا ما ثقلت وطأة الواقع علينا وتأزمت الأمور أمام ناظرينا ، فنأخذ فى تمجيد الطفولة وفى ترديد الأشعار التى غناها الشعراء فى مدح الطفولة ناسين أو متناسين المشاعر العنيفة البدائية الغلابة من غيرة مفرطة ونزعات عدوانية ترمى إلى البطش بأعز الناس إلى قلوبنا وخبرات أليمة وجدت مستقراً لها فى غياهب اللاشعور ، ناظرين فقط إلى بهجة الطفولة وروعتها وخلوها من التبعات التى تضيق بها أنفسنا . فيرتد المرء — فى خياله — بعقارب الزمان إلى الوراء لعل الماضى يعينه على أن يتخفف من ثقل الحاضر الأليم الذى يشعره بالعجز والإخفاق . ويمكن أن نقول بوجه عام إن النكوص هو ارتداد المرء إلى مرحلة سابقة من مراحل نموه النفسى . فالنكوص لون من ألوان التوافق عن طريق الارتداء لأن الشخص لا يحاول فيه أن يحل مشاكله بطريق مباشر بل يرتد إلى نمط توافقى أقل مرتبة وتمشياً مع نموه النفسى . فحل المشكلة التوافقية عن طريق الارتداد إلى ميكانيزمات تكون أكثر صلة وموافقة لمستوى زمنى أقل يسمى نكوصاً .

(١) Shaffer "Psychology of adjustement." p 198.

ويلاحظ النكوص عادة فى السنين الأولى عندما يحاول الطفل فى الثانية أو الثالثة من عمره حل مشكلاته عن طريق الارتداد إلى العجز وعدم المسئولية التى تتميز بهما الطفولة المبكرة . وهناك قصة تروى عن طفلة فى الثانية من عمرها شعرت بأنها لم تعد تحظى بنفس العناية التى كانت تحظى بها بسبب ميلاد أخ جديد لها . وحدث ذات يوم أن وقعت على الأرض ولم تحاول أن تنهض قائلة بلهجة يشوبها الصياح « لا أستطيع النهوض ؛ إنى ما زلت صغيرة » . ومن الواضح أن الطفلة بسلوكها هذا المسلك إنما كانت تنشد نفس العناية القديمة التى حرمت من جزء منها بسبب قدوم منافس جديد لها فى العائلة .

ومما سبق يمكننا القول إن النكوص يفيد عادة التراجع أو الارتداد إلى طرق للتفكير والعمل والشعور تنتمى إلى مرحلة من مراحل الطفولة ، ولكن النكوص يدل من الوجهة الفنية على معنيين متمايزين : فيفيد المعنى الأول رجوع المرء إلى نموذج السلوك الذى كان يسلكه فى مرحلة مبكرة . ولقد أطلق كل من باركر ودمبو على هذا النوع من النكوص لفظ Retrogression كارتداد الطفل إلى استعمال اللهجة التى كان يستعملها فى مرحلة سابقة أو التجائه إلى اللثغة فى حديثه . ولعل المثال الآتى يزيد الأمر وضوحاً : مثال الطفل الذى يحس اقتراب ميلاد طفل جديد أو ولادته بالفعل فيتبول على نفسه أو يلجأ فى كلامه إلى التهتهة إلخ ؛ والمعنى الثانى للنكوص لا يتضمن ضرورة الرجوع إلى نفس النماذج التى كان يلجأ إليها الشخص نفسه . ويسمى باركر ودمبو ولفن هذا النوع من النكوص بالنكوص الأصيل Retrogression proper . ومن الواضح أن المعنى الثانى للنكوص يتضمن المعنى الأول . ويفيد المعنى الثانى توقف الإعلاء Sublimation أو إعاقته فى سبيل الارتداد إلى أشكال من السلوك أكثر أولية وإلى ضروب من الإفصاح أكثر بدائية . وبوجه الإجمال يشير هذا المعنى إلى كل سلوك غير ناضج أو غير مكتمل . فسلوك البالغ الذى يطرح الطرق المقبولة من الوجهة الاجتماعية للتعبير عن الغضب أو العدوان كالاحتقار أو الزراية ويلجأ إلى طرق أكثر بدائية كأن يضرب من سبب له الغضب بقبضة يده إنما يوضح هذا المعنى تمام التوضيح . ولكن مكدوجل يرى قصر مفهوم النكوص على الرجوع إلى المظاهر الطفلية البارزة فى الفعل ويقول « إن البينة على وجود النكوص والطابع الجوهرى الذى يميزه هو إحياء طرق الفعل ذات الصبغة الطفلية من جديد

التى خلفتها منذ مدة طويلة الطرق الموافقة للشخص البالغ[1] » ، ويترتب على هذه النظرة إخراج الأحلام وطرق التعبير الخيالية من ميدان النكوص وعزوها إلى عدم انتظام التفكير وتفاوته من حيث الوضوح والغموض . وعلى هذا النحو يضيق مكدوجل من معنى اللفظ على خلاف جمهرة علماء النفس الذين يرون النكوص ظاهراً فى كثير من المظاهر والعمليات النفسية كالأحلام وضروب التعبير الخيالية . فمن الممكن أن يتم النكوص عن طريق السلوك أو الخيال أو الذاكرة وعند ما يتم النكوص عن طريق السلوك فإننا ننظر إلى السلوك كعرض Sympom ذلك لأنه يتسم بالغرابة وعدم الموافقة بالنسبة للموقف الذى يتهدد الفرد . فهذا الطفل الذى يتبول على نفسه ليلا لا يفعل شيئاً لمواجهة المشكلة التى تواجهه بل يجعل المشكلة صعبة بالنسبة لأفراد عائلته . ومن المعروف أن البوال ما هو إلا ارتداد إلى مرحلة عدم المسئولية فى ضبط المصرة التى يتميز بها سلوك الطفل الصغير . ومص الأصابع مثل معروف للسلوك الارتدادى . ومع ذلك فإن من الممكن أن يتم النكوص عن طريق الخيال كما هو الأمر عندما يترك الإنسان لأفكاره العنان لتجتر الماضى وذكرياته خاصة الذكريات الجميلة للطفولة . ويتفاوت النكوص فى اكتماله ودقته . فمن ناحية نلاحظ أشكالا عرضية من أشكال النكوص تتمثل فى ألوان من السلوك شبيهة بسلوك الأطفال عند كل إنسان . فكل شخص يود أن ترجع عقارب الزمن إلى الوراء إذا ما برم بحياته ومسئولياتها كما تبدو فى أحلامنا عناصر طفلية كثيرة . وكثير من الأفعال العرضية التى تبدو على أنها عديمة الصلة بالشخصية كاللزمات ما هى إلا استمرار للنزعات الطفلية . وكثير من مظاهر السلوك الشاذة ما هو إلا أسلوب طفلى فى طبيعته . ومن جهة أخرى ، نلاحظ الأشكال المتطرفة للسلوك عندما يشمل النكوص الشخصية بأجمعها . وفى مثل هذه الحالة يتخذ المريض اتجاها طفلياً بما يتميز به من عدم الشعور بالمسئولية والغرابة ، كما يتفاوت النكوص كذلك فى كميته ودرجته وهناك اعتقاد بأن النكوص يصل إلى درجة متطرفة من العنف كلما كان الارتداد إلى مراحل الطفولة المبكرة أكثر ظهوراً وكلما ازداد الانفصال بين المرء والحالة الراهنة . فالشخص الذى تتميز عنده « الذات العليا » بالواقعية وتكون منسقة مع مجاهدات « الأنا » لا يكون عرضة للنكوص بأشكاله الواضحة الخطيرة

(١) McDougall, "An outline of Abnormal Psychology." p. 294.

بينما الشخص الذى تسيطر عليه وتقوده فى حياته . « ذات عليا » غلابة ملحة تقوم على قدر كبير من الأفكار الخيالية يكون عرضة لضروب عميقة من النكوص حينما تهدده حالة معوقة . وظاهر من ذلك أن النكوص لا يقتصر على مجرد إحياء الطرق الطفلية القديمة للفعل بل إنه يتناول كثيراً من أنواع السلوك .

ويعزو فرويد إلى النكوص دوراً هاماً فى نشأة الأعراض العصابية . فالليبيدو — أو الطاقة الجنسية — عند كبتها أثناء الصراع تميل إلى العودة والظهور من جديد متخذة أشكالا طفلية فى التعبير والإفصاح عن نفسها . ويعزو يونج كذلك كثيراً من الأهمية إلى النكوص « فعن طريق مفهوم النكوص انتهى التحليل النفسى إلى كشف من أعظم كشوفه أهمية فى هذا المجال » وإن « تأثير النكوص ليبلغ من العظمة والأهمية والتأثير حداً يجعلنا ميالين إلى أن نعزو إلى هذا الميكانيزم وحده الأثر فى إحداث الحوادث النفسية العارضة » . ولكن نظرة يونج تختلف عن نظرة فرويد . فنلاحظ أولا أن يونج ينظر إلى الليبيدو نظرة أوسع من تلك التى ينظر بها فرويد . فلقد قصر فرويد الليبيدو على الطاقة الجنسية فى حين أن يونج قد جعله شاملا لكل ضروب النشاط النفسى سواء كان جنسياً أم غير جنسى . ونلاحظ ثانياً أن يونج لا ينسب أهمية كبيرة إلى المظاهر الجنسية الطفلية ! وإن شئنا الدقة لقلنا إن يونج أنكرها تمام الإنكار . فمن المعروف أن فرويد يرى فى نشاط الرضيع أو الطفل الصغير قبل الخامسة أو السادسة مظاهر جنسية تتلوها فترة كمون ! وأن التربية ترمى وتعمل على قمع وكبت هذه النزعات الجنسية وتمهد السبيل فى السنة الخامسة أو السادسة لفترة الكمون التى تستمر إلى البلوغ ! وفى فترة الكمون تبقى الغريزة الجنسية دون تعبير صريح . ويقول يونج عن نظرية الجنسية الطفلية وفترة الكمون التى تعقبها إن « عملية النمو على هذا النحو تبدو من الوجهة البيولوجية مدعاة للغرابة . وهذا الافتراض المستحيل ما هو إلى نتيجة للحكم الذى يقول بأن أنواع النشاط الطفلى للمرحلة السابقة على المرحلة الجنسية ما هى إلا مظاهر للتعبير الجنسى ! وأن ضروب الإفصاح التى تشبه جلد عميرة إنما هى عمليات — فى جوهرها — جلد عميرة . وعلى هذا النحو كان على فرويد أن يؤكد القول باختفاء الإفصاح الجنسى — أو على حد تعبيره — « فترة الكمون » . وما يسميه اختفاء لمظاهر الإفصاح الجنسى ليس فى حقيقة الأمر إلا البداية الحقيقية للجنسية ! وكل

ما سبقها ليس إلا مرحلة سابقة لا يمكن أن نعزو إليها أية صفة جنسية حقيقية . وعلى هذا النحو نرى الظاهرة التي عز تفسيرها على فرويد — أي مرحلة الكمون — قد فسرت ببساطة . وظاهرة فترة الكمون الجنسية ما هي إلا شاهد واضح على عدم صحة مفهومات الجنسية الطفلية المبكرة[1] » . وعلى الرغم من نبذ يونج لفكرة الجنسية الطفلية المبكرة فإنه يعتقد — كما اعتقد فرويد من قبل — بعقدة أوديبوس وكل ما هنالك من اختلاف بينهما في هذا الصدد أن فرويد يرجع تكون هذه العقدة إلى النشاط الجنسي الحادث بالفعل في فترة الطفولة والكبت الذي يعقبه بينما يرى يونج أن عقدة أوديبوس ناجمة عن اللاشعور الجمعي الموروث ؛ والقدر الذي تتخذه هذه العقدة من حيث الطابع الجنسي لا يتحقق إلا عندما تنضج الغريزة وتصبح نشيطة في فترة الطفولة المتأخرة Later childhood . فهذه العقدة موروثة من ضمن التراث الذي يتضمن اللاشعور الجمعي الذي يشمل تراث الجنس بأجمعه . فالتكوص — فيما يرى يونج — ليس كله تحديداً لنشاط المركبات الجنسية التي تكونت إبان فترة الطفولة المبكرة . ويؤكد يونج من قيمة « الحاضر » في نشأة السلوك المنحرف الذي قد يفضي إلى التكوص في حين أن فرويد يؤكد من قيمة الماضي أكثر مما يؤكد من قيمة الحاضر في نشأة الانحراف النفسي والشذوذ .

ويرى مكدوجال أن الدكتور موريس نيكول Maurice Nicoll قد لخص مذهب يونج في التكوص تلخيصاً رائعاً . وهاك ما كتبه الدكتور موريس في تلخيصه لمذهب يونج : « التكوص فعل نفسي ويفيد — بمعناه العام — ابتعاد المرء عن طرق التكيف مع الحياة إلى حالة الطمأنينة التي يشعر فيها الطفل بين ذراعي أمه قبل أن يكتشف بعد مسئوليات الحياة ؛ وبدلا من أن يقابل المرء العقبات الحديثة التي تصادفه في الحياة عن طريق الأداء والعمل ترى العصابي يكون أعراضاً مرضية جديدة . فالخطوة الأمامية التي تصاحب التغلب على الأعمال الجديدة مفقودة ويقوم بدلا منها شيء يبدو في الظاهر على أنه مجرد خلق متزايد للحواجز « للعقبات » . فينضاف الدوار إلى القلق ويظهر الصداع والغثيان واضطراب القلب والميل هذا إلى طائفة أخرى من صور عدم القدرة . وعلى هذا

(1) Jung as quoted by McDougall in, " An Outline of Abnormal Psy." p. 282.

النحو يضحي دواماً بالمستقبل على حساب معاناة أكبر ؛ فالخطوة الأمامية التقدمية للحياة قد أوقفت .

ويبدو المرضى غير قادرين على أن يتخلوا عن أعراضهم المرضية ، وفى بعض الأحايين يتمسك المرضى بها بعناد على الرغم من أنهم يصرحون برغبتهم فى أن يشفوا منها . ويبدو أن هناك شيئا أقوى منهم يجذبهم إليه ويمسك بهم فى قبضة العصاب . ويبدو أن المجرى النفسى قد وجد له هدفاً مغايراً تمام المغايرة للهدف الذى يجاهد فى سبيل تحقيقة الشخصى السوى . وهناك ثلاث طرق للتخلص من حالة غير محتملة (عدا الهرب الذى يتخذ شكلا فيزيقياً) : التغلب على الموقف بمجهود ينحو إلى التقدم مصحوب بمعاناة عادية يستلزمها الموقف ، والتغلب الوقتى أو العرضى على الموقف غير المحتمل عن طريق كبت بعض الانفعالات التى يستثيرها الموقف وما يحدث فى هذه الحالة ليس هو بالتوافق الصحيح وإنما هو أشبه ما يكون بالتوافق الناقص لأن الكبت تكمن من ورائه الأعراض العصابية هذا إذا ما فرضنا نجاح عملية الكبت ؛ وحينما يكون الكبت متطرفاً يصل الأمر إلى النكوص . وفى هذه الحالة تستبدل المعاناة المرضية بالمعاناة السوية . وهذا الأسلوب إنما هو نقيض التكيف عن طريق التقدم لأن الحركة النفسية منزوية أو متجهة إلى الداخل بعيدة عن مستوى الشعور بالواقع متجهة نحو مستوى خيالى . وقد تكون هذه الحركة متدرجة أو مفاجئة ، ولقد تتخذ اتجاهاً متطرفاً إلى حد أن يصبح المريض أعمى ، أبكم ، ومصاباً بالشلل فى أطرافه أو يكون طفلا من الوجهة النفسية أو الأمرين معاً » .

ويمكن النظر إلى النكوص على أنه ميكانيزم بمعنى أنه أسلوب يتخذه المرء لتجنب مواجهة أو حل المشكلات الصعبة التى تهدده وتشعره بالخيبة أو الإخفاق . فالنكوص هرب من الواقع . ويرتبط النكوص بالتثبيت Fixation من ناحية أخرى لعلاقته بمراحل النمو . فالنكوص خطوة إلى الوراء وارتداد إلى مرحلة من مراحل النمو السابقة وعود إلى الطرق القديمة للتفكير والشعور والسلوك التى ظهر نفعها فى الماضى ويحاولها المرء من جديد علّه يجد فيها بطريقة سحرية حلا لمشكلاته التى تهدده . ويرى شافر فى كتابه « سيكولوجية التوافق » عدم وجود نموذج معين للسلوك يمكن أن نطلق عليه « النكوص » كما يعتقد أن النكوص ليس بالميكانيزم بالمعنى الكامل الذى يفيده هذا اللفظ وكل ما فى الأمر أنه خاصية

لأشكال عديدة من السلوك غير المتوافق . ولكن الكاتب يرى أن النكوص ميكانيزم حقيق . ويمكن الرد على شافر فى حجته التى تقول بأن النكوص خاصية لأشكال عديدة من السلوك غير المتوافق بقولنا إنه من الصعب على الباحث أن يجد حالة نفسية ينفرد بالعمل فيها ميكانيزم واحد . وإن الميكانيزمات النفسية تكاد أن تكون متداخلة متشابكة ويظهر هذا بوضوح فى عالم الأحلام . أما عن النموذج المعين المحدد للنكوص فهذا ما يظهر بوضوح وقوة فى ملاحظة كل من Dieterle و Koch لمريضتين بافستريا . فلقد ارتدت هاتان المريضتان فى حالة الذهان التى أصابتهما إلى درجة اتخاذ نماذج[1] طفلية واضحة لا تخطئها العين كالصراخ والرضاعة من زجاجة .

لقد فرغنا الآن من تعريف النكوص وذكر آراء بعض العلماء البارزين فيما يختص بموضوع بحثنا . وسنأخذ الآن فى ذكر أهم الدوافع التى تدفع المرء إلى النكوص . يرى ولز Wells[2] أن النكوص يرجع إلى إخفاق الطاقة فى مجاريها وتمشيها مع مطالب الموقف الراهن . وهو يشبه الحالة المعوقة التى تفضى إلى النكوص بالحمل load بالمعنى الذى يستخدم به هذا اللفظ فى علم الطبيعة . وواضح أنه فى حالة ما يفوق الحمل أو الصعوبة الطاقة المستخدمة يتكون الميل إلى التقهقر أو الارتداد إلى نوع من التوافق يتطلب نشاطاً أقل . فقد تلجأ الزوجة التى تجد صعوبة فائقة فى الوقوف أمام زوجها الشرس إلى حيل وطرق كانت تتخذها إبان طفولتها تجاه والديها . وهذه النظرة على الرغم مما ينقصها من السند التجريبى أو الإكلنيكى — يمكن أن يكون لها بعض القيمة كفرض يعيننا على تحديد أى الحالات يكون فيها النكوص وسيلة من وسائل التوافق .

وقد يتخذ النكوص صورة الارتداد إلى أنواع من السلوك ذات طبيعة واضحة معينة أو التغير فى نوع أو كيف السلوك أو الشخصية على نحو يكون أكثر بدائية وأقل تنظيما . ولقد وضح بطريقة بارزة كل من باركر Barker ودمبو Dembo التغيرات التى يتخذها السلوك أثناء عملية النمو . وهذا التحليل يمكن أن ينطبق على النكوص فيما يرى سيموندز parcival Symonds فى كتابه « Dynamics of Human

(١) Dieterle & Koch, "Experimental induction of infantile behavior in major Hysteria" in "Journal of nervous & mental Diseases," 86 (1937), 688-710.

(٢) Wells: "Social Maladjustment; "Adaptvie Regression." in Carl Murchison, editor, Handbook of Social Psychology, ch. XVIII' 845 915.

Adjustment ، فمن المعروف أن تطور السلوك يصاحبه تغير فى كيفه ونوعه . فالطفل الصغير يعتمد على والديه فى قضاء حاجاته وتحقيق أهدافه ، وكلما امتد به العمر كان أقل اعتماداً على الغير وأكثر قدرة على تصريف أموره بنفسه . كذلك يختلف السلوك فى تنظيمه Organisation ، فالشخص الناضج أهدافه وأغراضه ، وتقل الأهداف وتتضائل فى مستواها فى النكوص . ويشير النمو إلى تنظيم متسلسل على خطوات تصل أقصى مداها فى السلوك المكتمل الناضج . فيلجأ الشخص إلى تحقيق أهداف فرعية ترمى إلى خدمة وتحقيق الهدف السامى الذى يبتغيه كما قد يلجأ إلى القيام طواعية بأعمال تقل فيها درجة التشويق والاهتمام وتكاد أن تكون خالية من المعنى فى سبيل الهدف الأكبر الذى يسعى جاهداً فى تحقيقه ؛ أما فى النكوص فيرتد المرء ويتراجع ويحاول أن يحقق الأهداف الأساسية بطريقة مباشرة أى لا يطيق الصبر على اتخاذ الخطوات اللازمة وإنما يتعجل الأمور على نحو شاذ لا يليق بشخص ناضج لأن النضوج يتضمن أيضاً نوعاً من التنظيم المعقد . وفى النضج Maturity اتساع المجال لضروب من النشاط والاهتمام : فكلما نما الطفل اتسع مجال اهتمامه فيصبح قادراً على تنويع مجالات اهتمامه ، وإذا ما أعيق فقد يصرف النظر عن بعض ما يهمه ويوجه نشاطه فى سبيل التغلب على بعض العقبات التى تحول دون تحقيق أهدافه ودوافعه الأساسية ، ولا يقتصر الأمر على ذلك فقط بل يعد العدة لرسم الخطوط العامة لتحقيق أهدافه المستقبلة . فلديه القدرة إذا ما شب وكبر على التنبؤ بالصورة التى يكون عليها — مستقبله واتخاذ الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الأهداف . وبالإجمال يمتاز الشخص الناضج ببعد النظرة . ويكون الأمر على خلاف ذلك فى النكوص ، فيتراجع الشخص لا ليستعد لمواجهة المشكلة ولكن ليحقق أهدافاً أكثر قرباً ومباشرة . وكلما كثر حظ المرء من النضج اتسم سلوكه بالتفاضل والتخصص فيعنى بالتفاصيل الدقيقة اللطيفة . ويكون الأمر على العكس من ذلك فى النكوص فالعناية بالتفاصيل تكاد أن تكون معدومة ويستجيب المرء للموقف كله ويكون النشاط أقل تفاضلا وتميزاً . وأخيراً فالنضج يتضمن درجة عالية من الواقعية ولا يتحقق هذا الشرط فى النكوص .

ولقد ميز باركر ودمبو ولفن بين نكوص الموضوع Object Regression ونكوص الحافز Drive Regression . ويقيد نكوص الموضوع الارتداد إلى

موضوع ما سبق أن استجاب له المرء فى الماضى كلعب الطفل باللعب التى كان يلعب بها فى مرحلة زمنية أقل مما هو الآن . فهذه الفتاة الراشدة التى عانت الخيبة فى علاقتها الغرامية برفيقها قد ترتد — ولو لمدة قليلة — إلى دميتها عليها تجد فيها وسيلة للسلوى والعزاء . ويشير نكوص الحافز إلى نوع وكيف السلوك كما يظهر فى استمرار لعب الطفل بنفس اللعبة التى يلعب بها . ولكن التغير الذى يصيب الموقف إنما هو التغير فى طريقة اللعب كأن يرميها بعنف أو يأخذ فى تهشيمها بدلا من أن يلعب بها على نحو نافع .

وقد يحدث النكوص نتيجة للصراع النفسى الذى يعانيه المرء . وتكون ضروب التعويق والحرمان الداخلى أكثر قوة من أنواع التعويق والحرمان الناتجة عن مؤثرات خارجية . فقد يشعر المرء أن مستوياته الخلقية لا تسمح له بالإفصاح عما يعانيه من دوافع عنيفه ومشاعر قوية غلابة . فهذا التلميذ الذى يجد نفسه مدفوعاً بمشاعر عدوانية تجاه مدرسه ولكنه فى الوقت نفسه لا يستطيع الإفصاح عنها نتيجة لطرق الكف التى امتصها من المجتمع الذى يعيش بين جدرانه قد يعالج هذا الصراع عن طريق رد الفعل Reaction Formation — أى عن طريق الإفصاح عن عكس النزعة التى يضمرها — فيكون تلميذاً طيعاً مؤدباً أو يعالجها عن طريق تقمصه لقوة مدرسه وشخصيته فيأخذ فى الاعتداء على من هم أصغر منه . ويظهر النكوص بشكل واضح فى سلوك هؤلاء الأشخاص الكبار الذين يعيشون بعقولهم فى الماضى فهم يقدسون الماضى ويأخذون فى تلمس الأخطاء فى التطور الحاضر . وأكثر الأشخاص قابلية واستعداداً للنكوص هم الأشخاص الذين تسيطر عليهم « الذات العليا » بشكل غلاب قاهر مع ضعف ظاهر فى « الذات » . فتضع « الذات العليا » التزامات عنيفة كما تلجأ إلى ضروب قاطعة من المنع والتحريم مما يترتب عليه لجوء المرء إلى النكوص والارتداد إلى مرحلة سابقة من مراحل النمو .

ويدفع « فقدان الطمأنينة » إلى النكوص . ويلاحظ فى الأطفال الذين حرموا من حنان أمهاتهم إما لموتهن أو لسبب آخر اتجاهات عدائية عنادية أو اتجاهات نكوصية ارتدادية ، أو الاتجاهان معاً . ويحق للمرء أن يتساءل لماذا يلجأ بعض الأشخاص إلى النكوص كوسيلة للخلاص من مشكلة صعبة بينما يلجأ البعض الآخر إلى التعويض أو الإعلاء ؟ ولقد قيل إن الإنسان مقيد فى

اتخاذ طرق جديدة للتوافق بتأثير قوة وتأصل الطرق القديمة للتوافق . وبعبارة أخرى إذا ما حدث أثناء عملية النمو « تثبيت » Fixation فيكون من السهل على المرء أن يرتد إلى هذه المراحل المبكرة التى اعتراها « التثبيت » فتكون بمثابة نقط للوقوف يرتد إليها المرء إذا ما تأزمت الأمور ولم يستطع لها حلا . والتشبيه الذى يستخدمه فرويد هو هجوم جيش على منطقة من مناطق العدو . ومن البديهى أن يكون لهذا الجيش قواعد أساسية رئيسية وفرق هجومية للغزو . فإذا ما أجبرت فرق الهجوم على الارتداد فإنها تتقهقر إلى القواعد الرئيسية الممتدة على طول ميدان القتال . وكلما كان التثبيت قوياً فى أية مرحلة من مراحل النمو كان من السهل على المرء أن يرتد إليها . « وطبيعة النكوص » إنما هى العلاقة التى تكشف عن عملية النمو نفسها بالنسبة لهذا الفرد .

ولكى يكون النكوص واضحاً فى ذهن القارئ لا بد لنا من ذكر الأشكال التى يتخذها النكوص . وأول هذه الإشكال هو النوم . والنوم ظاهرة عادية مألوفة ولكنها تصبح شاذة إذا ما طالت المدة التى ينامها المرء عن المألوف . ويدل النوم غير العادى على رغبة المرء فى الفرار من مشكلاته التى لا يجد لها حلا . ولقد صرح لى أحد أصدقائى بأنه ينام كثيراً إذا ما أعوزته الوسائل لحل مشكلة اعترضته أو عقبة صادفته . ولقد لاحظ الكاتب على سيدة شابة فشلت فى حياتها الزوجية التى لم تدم أكثر من شهرين طول ملازمتها للفراش وعدم مغادرتها للفراش إلا فى حالات الضرورة القصوى . فلما استوضحها السبب فى ذلك قالت « إن النوم راحة وفيه بعد عن العالم ومضايقة الناس » . وواضح أن هذه العبارة تكشف عن سوء التوافق . ويلاحظ المدرسون أن معظم حالات النوم فى حجرة الدراسة لا ترجع إلى مجرد التعب بل ترجع إلى فقدان الاهتمام بما يقوله المدرس . وفى النوم يوجد الارتداد أو النكوص إلى الوضع الجنينى « Embryonal state » .

ويلى ذلك النكوص إلى المرحلة الفمية . ويلاحظ فى هذا اللون من ألوان النكوص الميل إلى الشره كما يبدو الارتداد إلى المرحلة الفمية واضحاً فى مص الأصابع والأشكال المختلفة للممارسة الشبقية الذاتية .

وفى مرحلة تالية نرى ارتداداً أو نكوصاً إلى المرحلة الاستية Anal Stage التى تظهر بفقدان عادة التبول والتبرز . فالبوال ما هو إلا مثل توضيحى من الطراز

الأول للنكوص . ويمكن أن ترجع ظهور البوال عند طفل من الأطفال — فى حالات كثيرة — إلى ظهور طفل جديد فى العائلة أو قرب ميلاده . فالبوال وسيلة — غالباً ما تكون لاشعورية — تهدف إلى جعل الطفل يحظى بنفس العناية التى توجه إلى الطفل الجديد لأن الطفل الجديد عندما يتبول على نفسه إنما يظهر عجزه وحاجته إلى من يهتم به مثله فى ذلك مثل الطفل الجديد . وقد يكون البوال طريقة للتعبير عن المنافسة والغيرة . ولقد سمع الكاتب من أخصائى نفسانى قصة ولد صغير يبلغ من العمر اثنى عشر عاماً لجأ إلى البوال كوسيلة يجذب بها انتباه أمه ويعلن عن طريقها غيرته من زوج أمه الذى كان لا يرغب فى وجوده . ويستطيع الباحث أن يجد أمثلة للارتداد إلى المرحلة الإستية فى الميل إلى التلوث وعدم النظام سواء بالنسبة للشخص نفسه أو بالنسبة إلى الأشياء التى التى تخصه والميل إلى الحصر Constipation والاهتمام المبالغ فيه بعملية التبرز والتبرز .

ويمكن أن نذكر كذلك جميع أشكال العجز أو الرغبة فى الحماية وجذب الانتباه التى يرى المرء من ورائها إلى أن يعامل كالطفل الصغير على أنها شكل من الاشكال التى يتخذها النكوص . فالشخص الذى يلجأ إلى البكاء المر والصراخ عند الخيبة والكلام بصوت عال وإظهار سروره وطربه بطرق مبالغ فيها وإلى إحداث « الزيطة » دون مبرر . ويحب دائماً أن يرجوه الغير فى إنجاز عمل من الأعمال إنما يلجأ إلى وسائل وطرق ارتدادية لجذب انتباه الغير . وهذا المريض الذى يستمتع بمرضه ويود أن يطيل أمده إنما يكشف عن نزعة ارتدادية. وتفسير ذلك فى غاية البساطة : المريض شخص عاجز فى حاجة إلى العناية كما أن المرض عذر مشهور نتعلل به لكى نعفى النفس من القيام بكثير من الأعمال البغيضة إلى النفس .

ويرى سيموندز[1] إمكانية تفسير أشكال التقمص المتطرفة Identification عن طريق النكوص . فيمكن أن يذهب المرء إلى القول بأن ضروب التقمص المتطرفة تشبه فى ظاهرها أنواع التقمص التى يتخذها الأطفال الصغار ومن ثم تكون نكوصية أو ارتدادية . فمن المعروف أن الأطفال يتأثرون تأثرا كبيراً بمن يتخذونه بطلا ويحاولون تقليده ما وسعهم ذلك . ولعل الدافع إلى ذلك شعور

(١) Percival Symonds, "Dynamics of Human Adjustment," p. 219

الأطفال بنقصهم ورغبتهم فى أن يكونوا أقوياء . والأمر كذلك بالنسبة إلى البالغ الذى يود أن يكون شخصاً آخر غير ما هو بالفعل . فمثل هذا الشخص يتخذ نماذج سلوكية هى فى جوهرها نماذج طفلية . ولقد ذهب البعض فى تفسير حب الجمهور للمغنين الذين يشوب صوتهم لهجة صبيانية إلى أن هؤلاء المغنين إنما يتيحون للجمهور الفرصة للاستمتاع بالنكوص عن طريق التقمص .

ويبدو النكوص واضحاً كذلك فى الزجسية أو عشق الذات . ففى فترة من فترات الطفولة المبكرة يبدأ الطفل فى اكتشاف نفسه ، ويجد فى نفسه موضوعاً أكثر إشباعاً للذة من أى موضوع آخر . فيشعر بالبهجة أثناء استحمامه ، وفى جريانه عارياً ، وفى عدوه وقفزه وفى لبسه ملابس غريبة . ولا يحقق الأطفال اللذة فى أجسامهم فحسب ولكنهم يبدأون أيضاً فى الاهتمام بأنفسهم كأفراد ؛ وهذا الاهتمام نعشق . وهذه هى المرحلة الزجسية — أو مرحلة الحب الموجه نحو الذات — التى يكون فيها الطفل معنياً بنفسه مشغولا بجسمه ومظهره لا يعنى بالعالم الخارجى قدر عنايته بنفسه . وبناء على ذلك يمكننا القول بأن البالغ الذى يجد فى نفسه موضوعاً للاهتمام بدرجة مبالغ فيها إنما يتسم سلوكه بطابع الطفولة . فالمرأة التى تنفق ساعات طوالا فى التزين أمام المرآة آخذة فى محاولة وتجريب كل وضع ممكن للقبعة على رأسها يجعلها أكثر جاذبية وافتناناً إنما تعمل وتسلك بطريقة تشبه سلوك الأطفال على نحو ما .

ويظهر النكوص بارزاً فى العدوان . ومن المعروف أن العدوان استعداد أولى موروث اضطر المرء إلى تعديل المظاهر التى يتخذها ليتفق سلوكه مع المقتضيات الاجتماعية . وعندما يزول القناع عن هذه النزعة البدائية نرى بوضوح ظاهر المظاهر الارتدادية . ولنبدأ بالطفل . فالطفل الصغير كائن هدام . فتراه يمزق صفحات الكتب ، ويكتب على الحائط ويسكب الحبر على السجاد . . . . إلى آخر هذه المظاهر التى تكشف عن ميله إلى الهدم . والأمر كذلك بالنسبة للبالغ الذى يصب نقمته على الأشياء إذا ما عاقه عائق : فالطالب الذى يمزق ورقة الإجابة فى حالة إخفاقه إنما يكشف سلوكه عن هذا الميل العدوانى . وهنالك طرق صبيانية للعدوان يتجلى فيها النكوص والارتداد إلى مستوى طفلى مثل « كذبة أبريل » خاصة عندما تتخذ شكلا متطرفاً . واتجاه الشكوى والتبرم وتلمس الأخطاء الذى يتخذه بعض البالغين إنما يشبه عادات الأطفال الذين يسيطر

عليهم آباء يحولون دون تحقيق رغباتهم باستمرار . فبدلا من أن يتخذ السلوك شكلا عدوانياً صريحاً تراهم يلجأون إلى الصراخ والشكوى . ويمكن أن يجد المرء نماذج شبيهة بهذا السلوك فى حياة الأفراد الذين جانبهم التوفيق فى حياتهم . وتسير مشاعر الغضب والكراهية فى نفس الاتجاه مع السلوك العدوانى . وعندما تسفر هذه المشاعر عن نفسها فى شكلها البدائى فإننا نكون بصدد نكوص أو ارتداد إلى أنواع الإفصاح التى يتميز بها السلوك الطفلى . وقد يفصح المرء عن غضبه بهذه الطريقة البدائية عن طريق المشاكسة العنيفة أو بضرب الأرض بقدميه . . . إلخ . وعندما لا يجد الغضب الفرصة للتعبير الصريح فإنه يتخذ أشكالا بديلة كالتهجم . . ويتفصح سلوك الشخص الغاضب عن استعدادات ارتدادية أو نكوصية نتيجة للإعاقة .

ويتفصح النكوص كذلك فى الخلفة Negativism . وتظهر هذه النزعة عند الأطفال فى الثانية أو الثالثة من عمرهم عندما يتعلمون عبارة « لن أعمل » فيأخذون فى مقاومة أى إيحاء يصدر إليهم من الكبار . ويكون الأمر كذلك بالنسبة للبالغ الذى يصر على اتخاذ الطريق الذى يحلو له وعلى أن يتخلص من القيود التى يفرضها عليه المجتمع . وتبدو الخلفة فى صور متعددة : فالشخص لا يود المساهمة فى عمل من الأعمال إلا إذا أسندت إليه الرياسة ، ويتلمس جاهداً الفرصة للتعبير عن هذه النزعة التى تعتلج فى أعماقه — ويحب بعض الأشخاص أن يعملوا العمل لا عن رغبة فى العمل ولكن الغير رفضوا أن يعملوه ويمتنعون عن العمل إذا ما وضح لهم أن الغير يود أن يعمله . كل هاتيك المظاهر إنما تكشف عن ارتداد السلوك إلى مرحلة طفلية أو صبيانية ، وإذا ما تكشف عنها سلوك البالغ كان هذا علامة على ارتداده إلى سلوك طفل يبلغ من العمر الثانية أو الثالثة .

ومما سبق يمكننا القول بأن النكوص طريقة شاذة من طرق التوافق لأن النكوص يفيد انعدام التكيف ما دام النكوص هو الارتداد إلى مرحلة من مراحل الطفولة واتخاذ أساليبها وطرقها فى التعامل مع الواقع . فالمرء يستجيب لما يتهدده ويقف عقبة فى سبيل تحقيق أغراضه بالارتداد إلى مرحلة سابقة وانتهاج أسلوب طفلى يتميز بالتواكل والاعتماد على الغير . فهو أسلوب عاجز لا تحل فيه المشكلات بطريقة مباشرة بل بطريقة ملتوية تسلب الإنسان فاعليته وقدرته وترتد به إلى درجة

من العجز لا تتفق مع ما يجب أن يكون المرء عليه من قدرة على حل المشكلات التى تعترضه . ولعل أهم خاصية للتوافق هى القدرة على حل المشكلات والاستفادة من الخبرات السابقة فى حل المشكلات الحاضرة . فالتكيف عملية ترمى إلى السيطرة على المواقف عن طريق الاستفادة من الخبرات السابقة . والتكيف يتضمن معنى الجدة والتطور ما دامت كل مشكلة تعرض لنا تتضمن عنصراً جديداً تضاف إلى خبرة الفرد وتستغل فى مواقف جديدة . ومع الأسف فإن كثيراً من الآباء والأمهات يمهدون الطريق للنكوص بحدبهم وعنايتهم المفرطة على أولادهم فى فترة الطفولة . والحنين إلى الوطن الذى يشعر به كثير من الطلبة الغرباء أثناء تلقيهم العلم ما هو إلا عرض من أعراض سوء التوافق . فهذا الطالب الذى يتفصح سلوكه عن نزعة ارتدادية ما هو إلا طالب قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بعائلته واعتمد عليهم كل الاعتماد فى تدبير شئونه والبت فى أموره الأمر الذى يترتب عليه حرمانه من تقرير أموره وعدم قدرته على حل مشاكله . فإذا ما تغير الجو وأصبح بعيداً عمن يقررون له الأمر ويعملون على إرضائه إذا ما تأزمت الأمور ظهرت عليه أعراض سوء التوافق وارتد على عقبيه إلى أسلوب سابق من أساليب التوافق ليحظى بنفس العناية التى كان يحظى بها أثناء وجوده بين عائلته . وإذا لم يصحح سلوكه عن طريق النصح وتبيان الأمور له على حقيقتها فقد يشكو من توتر انفعالى ملح أو يعانى القلق الذى قد يتخذ أعراضاً فيزيقية مثل سوء الهضم أو الصداع . فإذا ما أفلح فى إقناع نفسه وإقناع الغير أن هذه الأعراض أعراض مرضية فيكون النكوص قد حقق هدفه ووصل إلى غايته ألا وهى الرجوع إلى موطنه حيث يشعر بنفس العناية التى كان يحظى بها . ويتم هذا الأسلوب عادة بطريقة لاشعورية .

ويظهر لنا مما سبق جناية الآباء على أولادهم عندما يتدخلون فى كل كبيرة وصغيرة من أمورهم مما يترتب عليه حرمانهم من التفكير والتدبر لما يعرض لهم من مشاكل . فالتربية الناعمة تؤدى إلى النكوص وكذلك الأمر بالنسبة للتربية الخشنة القاسية . وكل ما نطمح إليه هو التربية المعتدلة التى تتميز بقدر كبير من الواقعية .

فإذا ما أردنا أن نعد أولادنا لحياة نفسية سليمة وجب علينا أن نعرف أن الحياة عبارة عن مجموعة من المشاكل تتطلب الحل ؛ وكل مشكلة إنما تغاير السابقة

بعض المغايرة . وعلى هذا النحو تتضمن الحياة معنى الجدة وتلقى على كاهل المرء أن يغير من سلوكه وفقاً لتغير المشاكل وتجددها . وقد ساعدت الطبيعة الإنسان على ذلك بما زودته به من مرونة فى السلوك وبما ركبت فيه من ذكاء يتفاوت بتفاوت الأفراد . ويختلف الناس بعضهم عن بعض فى قدرتهم على المرونة وتشكيل سلوكهم كما يختلفون أيضاً فى حظهم من الذكاء ومن هنا تظهر « فردية » كل إنسان . هذه الفردية التى تكون لب الشخصية وجوهرها والتى تجعل إمكانية التطور والرقى حقيقة واقعة . فعلى الآباء أن يتخففوا من سلوكهم المسيطر وألا يبالغوا فى حنانهم وحدبهم فى سبيل صالح أولادهم .

كمال الدين عبد الحميد نايل

منشورات جماعة علم النفس التكاملى

المنشأة برعاية المغفور لها الأميرة شيوه كار

يشرف على إصدارها الدكتور يوسف مراد

ظهر حديثاً :

مدارس علم النفس المعاصرة

تأليف
روبرت ودورث

ترجمة وتعليق
كمال دسوقى

الكتاب فى علم النفس الحديث الذى ظهرت له فى الإنجليزية خمس عشرة طبعة منذ ظهوره سنة ١٩٣١ . به عرض وتحليل ودراسة لكافة مدارس علم النفس وقد زوده المترجم بمقدمة وافية ، وتعليقات متتابعة على أكثر من مائة علم ونظرية وبأحدث المراجع فى الإنجليزية والفرنسية التى ظهرت فى لندن وباريس حتى وقت ظهوره . كتاب لا غنى عنه للقارئ العربى .

٣٦٨ صفحة من القطع الكبير

الثمن ٥٠ ص

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر